

## الرِّبَاط والرَّابِطَات فِي الْأَسْمَاءِ وَالْأَثَارِ الْإِسْبَانِيَّةِ

تأليف : ميكال دي إبلزا ( Mikel de EPALZA )

أليكانت -إسبانيا

تعريب : الحسين يعقوبي

كلية الآداب -القيروان\*

الرِّبَاط مؤسَّسة إسلاميَّة ، تدخل عند المسلمين في نطاق الأنشطة الرُّوحِيَّة والعسكِرِيَّة<sup>(1)</sup>. وقد ترك الرِّبَاط منذ ألف سنة من تأسيسه، معالم أثرِيَّة وتسميات لمواقع جغرافيَّة مهمَّة في الغرب الإسلامي ، وخاصَّة الحصون التي تُعْهَدُ بالترميم في سوسة والمنستير بالبلاد التُّونسيَّة، وهو نفسه الاسم الذي أطلق على عاصمة المغرب الحاليَّة : الرِّبَاط (رباط الفتح)<sup>(2)</sup>.

وهناك في إسبانيا اتِّجاهان يعتنيان بالتَّاريخ المحليَّ انطلاقاً من حفريات تعود إلى العصر الإسلامي، ومن تسميات من أصل عربي للمواضع، هذان الاتِّجاهان قد جَدَّدا في هذه السَّنَوَات الأخيرة البحثَ في بُعد من الأبعاد الأكثر طرافة في الإسلام خلال القرون الوسطى: وهو روحانيَّة التَّطَوُّع للحرب على أساس أن المرباطة نشاط مكمل للجهاد، كما هو سائد في إطار الرُّوح الحرِّيَّة والتَّطَوُّعِيَّة في الإسلام<sup>(3)</sup>.

(\*) نستعمل المختصرات التَّالية للغات التي كتبت بها المراجع. (Ar.) بالعربيَّة، (Fr.) بالفرنسيَّة، (Ang.) بالإنكليزيَّة، (Esp.) بالإسبانيَّة.

(1) انظر فصل " رباط " في : دائرة المعارف الإسلاميَّة المختصرة ( Shorter E.I. )، لندن - لندن، 1961، 473-475 (Ang.).

(2) انظر، على سبيل المثال، فصولاً في نفس هذه المجلة ل: ل. غولفان ( L. Golvin ) " ملاحظة حول لفظ رباط ( مصطلح هندسي ) وتأويله في الغرب الإسلامي (Fr.)، في: مجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط، (Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée) أيكس - إن- بروفنس ، 5-6، 1968-69، 95-101. والسيد م. برات ( M. Brett )، مفتي، مرباط، ولي، ومهدي: 4 أنواع في التَّاريخ الإسلامي لشمال إفريقيا (Ang.) نفس المراجع. 29، 1980، 5-15.

(3) انظر بالنسبة إلى الأفكار المأولة، أ. ويبار ( E. WEBER ) - ج. راينو ( G. REYNAUD ) تقديم م. دي إبلزا ( M. de EPALZA ) : صليبيَّة الأُمس وجهاد اليوم: التنظير والممارسة للعنف في العلاقة بين الغرب المسيحي والمشرق الإسلامي (Fr.)، باريس 1989. وم. دي إبلزا ( M. de EPALZA ) : المنستير بإفريقيَّة والمنستير بشرق الأندلس ، والتراث الأندلسي في الثقافة العربيَّة والإسبانيَّة (Fr.)، تونس، 1991، 95-106.

وقد صدر في هذا الشأن تأليفان جماعيان يمثلان هذا الاهتمام المزدوج بالحفريات وتسميات المواضع، توصلا إلى نتائج في الدراسات الإسلامية لا يُستهان بقيمتها في معرفة المجتمع الإسلامي الكلاسيكي<sup>(4)</sup>.

وقد فتحت، في إسبانيا الحالية، نتائج البحث في بقايا الآثار والتسميات الماثورة للمواضع المتعلقة بهذه المؤسسة الإسلامية في المجتمع الأندلسي، مجالا جديدا للبحث في معرفة الإسلام في القرون الوسطى، معرفة من شأنها أن تدقق تدقيقا أفضل العلاقة المستمرة بين الروحية الإسلامية وبعدها الجهادي-أو بالأحرى التطوعي - الأكثر تداولاً.

### اكتشاف أثري مثير: مساجد قواردمار.

اكتشف باحث الآثار الأليكانتي (رفائيل أزوار رويز: Rafael Azuar-Ruiz)، في ديسمبر 1984، أثناء حملة تنقيب قصيرة مجموعة آثار تتألف من أربعة مساجد، ثم واصل عمله إلى أن اكتشف ما يصل إلى اثنين وعشرين مسجدا صغيرا مجمعة في أعلى الكتبان على الشاطئ بجوار مدينة ( قواردمار دال شقورة : Guardamar del Ségura)، الساحلية، على الضفة اليمنى الجنوبية، عند مصب نهر شقورة (Ségura) الصغير في البحر الأبيض المتوسط. وقد نشر الباحث هذا الاكتشاف في مختلف الأوساط العلمية<sup>(5)</sup>، وفي الكتاب المذكور آنفا المشتمل أيضا على وقائع ندوة التأمّت سنة 1989<sup>(6)</sup>.

---

4) رفائيل أزوار (Rafael AZUAR) (ناشر) الرّباط زمن الخلافة في كتيبان قواردمار (أليكانت) الخزف، النقوش الكتابية، الحيوانات، والرخويات، (Esp.) أليكانت، 1989، 217 ص. وم. دي إبلزا (Mikel de EPALZA) (ناشر): الرّباط الإسلامي، تاريخ تأسيسه ودراسات جهوية أخرى في ملتقى رباطات الدولة الإسبانية (7-10 سبتمبر 1989)، سانت كارلس دي لا رابطة (Sant Carles de La Ràpita) 1993، 359 ص (Esp.)

5) انظر خاصة ر. أزوار (R. AZUAR) الملاحظات الأولى حول أشغال الحفريات المقامة في المنجم (el Yaci-miento) الإسلامي حول كتيبان قواردمار بشقورة (أليكانت): إمكانية العثور على رباط من عهد الخلافة، شرق الأندلس. دراسات عربية (Esp.)، أليكانت، 2، 1985، ص 125-136؛ و" رباط من عهد الخلافة في كتيبان قواردمار (أليكانت) "، أعمال ملتقى الحفريات القروسطية الإسبانية، مج III (Esp.)، الأندلس، سرقسطة، 1986، ص 505-525؛ إمكانية وجود منستير في كتيبان قواردمار بشقورة (أليكانت)، الجزائر الشرقية بالأندلس وعلاقتها بشرق الأندلس في المغرب وأوروبا المسيحية (ق VII-XIII) (Esp.)، مدينة دي پالما، 1987، ص 265-309؛ رابطة قواردمار. ألف سنة تحت الكتيبان، نقاش (Esp.)، بلنسية، 21، سبتمبر 1987، ص 22.

6) انظر: رفائيل أزوار (Rafael AZUAR) (ناشر) الرّباط زمن الخلافة...، 9، 13-17 و"الخاتمة" ص 208-215 (Esp.).

وقد قاد السيّد أزوار (M. Azuar) في السّنّوات الأخيرة عدة حملات تنقيب وأشغالا مكلفة لترميم الآثار المكتشفة وحفظها. ومنذ ذلك الوقت بدأ ظهور بعض الأبحاث حول هذه الآثار الإسلامية<sup>(7)</sup>. وهناك تأليف ثان قيد الإنجاز، بإشراف أزوار (M. Azuar)، وليس من سبب لتأخير ظهوره إلا الجدل القائم في خصوص الحفريات، بين هذا الباحث والأستاذ المختص في الحفريات الفينيقية بجامعة أليكانت ألفريدو فنزلاس پراتس (Alfredo Gonzales-Prats) الذي يطالب بدراسة عينية لمدينة فينيقية مهمة كانت قد طُمرت هي أيضا تحت كثبان فواردمار (Guardamar) في أسفل مستوى الطبقة المشتملة على الآثار الإسلامية<sup>(8)</sup>.

ولم يكن - قطعاً - اكتشاف ما في فواردمار (Guardamar) وليد الصدفة، وإنما مهدت له أعمال سالفة يتعين ذكرها.

ولنذكر في الدّرجة الأولى من بين تلك الأعمال السابقة وجود لوحة تذكارية لتأسيس مسجد، عثر عليها في نهاية القرن الماضي (في سنة 1897) بمناسبة أشغال لتثبيت الرّمال بأشجار السّرو، أشرف عليها المهندس فرنسيسكو ميرا (Francisco Mira)<sup>(9)</sup>. وقد احتفظ بلوحة تأسيس المسجد المؤرخة في 944/333 بالمتحف الأثري برسية. وقد فُكّت رموزها، ثمّ درسها بعد بضعة أشهر من اكتشافها المستعرب الأكاديمي فرنسيسكو كوديرا (Francisco Codera)<sup>(10)</sup>. وهي تحتلّ مكاناً مرموقاً في أهمّ قوائم مجموعة الألواح المكتوبة بالعربية بإسبانيا<sup>(11)</sup>. ولكنّ المكان المضبوط الذي تمّ فيه اكتشافها في منطقة الرّمال الممتدة قرابة أربعين كلمتراً حذو الشاطئ، بقي مجهولاً.

(7) انظر أعلاه هامش عدد 4، وس. فويتارز لورات (S. GTIERREZ LLORET)، خفريات من العصر الحجري الأندلسي في جنوب أليكانت (ق VII-X) (Esp.) أليكانت، 1988، ص 294. م. دي إبلزا (Mikel de EPALZA)، المنستير بإفريقية ...

(8) تقديم منجم فينيقي في المتقى الثاني للحفريات الفينيقية البونقية (Fr.) (ياسة، 1987) في المتقى الأول حول العصر الحجري في شبه الجزيرة الإيبيرية (مدير، 1989) وأ. فنزلاس پراتس (A. Gonzalez-Prats)، أضواء جديدة على ما قبل التاريخ في الجنوب الشرقي (Esp.)، أليكانت 1990، جدل في صحافة أليكانت بين الباحثين أزوار (Azuar) وأ. فنزلاس پراتس (A. Gonzalez-Prats) في أكتوبر 1992 (Fr.).

(9) انظر. ميرا و بوتلا (F. Mira y Botella): إعادة تعمير كثبان فواردمار بشقورة مدير 1929، 5-6 (Esp.).

(10) انظر: ف. كوديرا و زيدين (F. Codera y Zaydin): كتابات عربية بفواردمار (Esp.)، المجلة التاريخية للأكاديمية الملكية، مدير 1987، XXI، ص 31-33.

(11) انظر: أ. ليفي بروئنسال (E. LEVI-Provençal)، كتابات عربية بإسبانيا في أربعة وأربعين لوحة وصورة نموذجية (Fr.)، باريس ليدن، 1931، رقم 95؛ م. س. برسالو توراس (M.C.Barcelo) (Torres)، "مقاربة من أجل مدونة للكتابات العربية البلنسية (Esp.)، مدينة، بلنسية، 1984، XXXIV، 63.

وقد حتم نشر مستعربين لبثين، قبل بضع سنوات من اكتشاف المساجد الصغيرة، جَلَبَ اهتمام الباحثين تجاه هذه المنطقة من مصب نهر شقورة ( Ségura )، ونحو ماضيها العربي. فقد كان أحدهما بحثا في الأصل العربي للتسمية "فواردمار" (Guardamar)<sup>(12)</sup> وكان الآخر يؤكد تأكيداً قوياً على العلاقة بين اللوحة التذكارية لتأسيس المسجد وتسمية الموضوع بـ ( - المدور - Almodövar )، وهي تسمية يذكرها علماء الجغرافية العرب وتذكرها وثائق أرشيف القرون الوسطى، وعلى الأخص ما كان منها من أصل عربي مصدره غرناطة بني نصر<sup>(13)</sup>.

إن هذا المدور أو "المنعطف" النهري هو المذكور على أنه (موضع) يقع قرب مصب نهر مرسية. وكان أزوار (Azuar) قد أشار إلى هذه الصلة من قبل<sup>(14)</sup>. إن تحديد موضع هذا المدور التاريخي وتصنيفه الحضري لهو موضوع احتمالات كثيرة متضاربة، لا يبدو إلى حد الآن أنه أقيم الدليل على ثبوت أي منها على الوجه الأكمل : فقد يتعلّق الأمر -رغم أن المصادر العربية لا تذكر شيئاً من هذا القبيل- بوجود مدينة مهمة مدفونة تحت الكثبان قرب المساجد الصغيرة<sup>(15)</sup>، وقد يحتمل أن يكون الموضوع معلماً أثرياً من العهد الإسلامي يقع على قمم الهضاب في الموضوع المعروف بحكمة التفتيش الكبرى (Inquisición Grande) قرب المنعطفات الأخيرة لنهر شقورة (Ségura) على بعد ثلاثة كلمترات من مصبه بين فواردمار (Guardamar) وروخالس (Rojales)<sup>(16)</sup>. وقد يحتمل أن يقع "الموضع" بسفح الهضبة في المكان الحالي للقرية والقصر العربي القديم بفواردمار (Guardamar) في الموضوع المعروف بالدائرة (Redonda) المحتمل اشتقاق تسميتها من اللفظ العربي "المدور" (méandre). أي "المحاط"<sup>(17)</sup>.

(12) انظر . دي إيبِلزا (M.de EPALZA) " رسم موضع فواردمار، فواردمار ( "وادي الكثبان " )، سهل العرب (Valdemoro) ( الوادي المرّ Río Amargo ) - و مسليون (Mesleon) نزل العين (Posada de Fuentes) ثلاثة أسماء أماكن عربية دخلت في اللغة الرومنسية (Esp.)، مجلة معهد الدراسات الأليكانتية، أليكانت، 29، 1980، ص 205-214 ؛ 38، 1983، ص 89-99 .

(13) انظر م. س. يرسلو توراس ( M. C. Barcelo Torres )، " المدور " أهالي من كسرة تدمر مدفونون في كتيان فواردمار بشقورة" (Esp.)، سيتابي، بلنسية، XXV، 1985، ص 71-59 .

(14) انظر: ر. أزوار رويز (R. AZUAR Ruiz) دراسة حول القلاع الأليكانتية القروسطية (Esp.) (في منطقة الجنوب) أليكانت، 1979، ص 123-214 .

(15) انظر: ر. أزوار (R. AZUAR) الرّباط في عهد الخلافة... ص 213-214 .

(16) انظر: أ غرسيا منرفاز (A.Garcia Menarguez) " حول تحديد موقع المدور ، في مصب نهر شقورة ، شرق الأندلس. دراسات عربية (Esp.)، أليكانت، 6، 1989، ص 149-157 .

(17) انظر: م. دي إيبِلزا (M. de EPALZA) توطنه لدراسة الرّباطات والمدن: قرية المدور (Esp.) الرّباطات الإسلامية... 95-98؛ أ غرسيا منرفاز (A.Garcia Menarguez)، المرجع أعلاه. ص 150 .

إنَّ اكتشاف المساجد في الموضع الَّذي استخرجت منه اللوحة التذكارية التأسيسية المحفوظة في المتحف الأثري بمرسية (Murcie) كان في النهاية نتيجة مقارنة مزدوجة تتمثل في :

- التَّنْقِيب بحثا عن منبع ماء في الكشبان ، لأنه يمكن أن يكون مؤشرا على وجود مسجد قريب ، في حاجة إلى الماء الصَّالِح للطَّهارة في عادات المسلمين (وهذا هو طرح اختصاصية في الإسلاميات، الأستاذة ماريا خيسوس روبيارا ماتا Maria Jesús Rubiera Mata-) وهو طرحي أنا أيضا ، في بحث وقع الشَّرُوع فيه بمعونة طلبة من الجامعة، ينتمون إلى قرية فواردمار (Guardamar)<sup>(18)</sup>.

وبالاعتماد على أبحاث السيّد أزوار (M. Azuar) المنطلقة من البحث في بعض المعالم الأثرية المشرفة على الكشبان، وبالتدقيق في مكان بجانب موضع يسمّى لا فونتيتا "Fonteta" ( الحنفية الصغيرة )<sup>(19)</sup>.

إنَّ عملية اكتشاف أربعة مساجد، ثمَّ اكتشاف ما يصل إلى اثنين وعشرين مسجدا صغيرا مجمعة يعتبر أمرا ملفتا للنظر ومثالا فريدا يعرف في الإسلام\* . وهذا من شأنه أن يطرح مسألة طبيعة هذا الموضع الخاصَّ بالعبادة الإسلامية .

وهناك ثلاث قرائن تحمل على مزيد التوضيح فيما يتعلق بدراسة الروابط والرباطات الإسلامية وهي:

- اشتمال رباط المنستير، بتونس، على مسجد ثان يسمّى مسجد النساء (وهو اقتراح قدمته روبيارا ماتا (Rubiera-Mata) متبعة في ذلك المماثلة بين الرباطات في التسمية الإسبانية والرباطات حسب أوليفر آسين (Oliver Asin)<sup>(20)</sup>.

- ما افترضته من أنَّ هذا الموضع يتطابق مع موضع الرابطة (المنستير) القائمة في شرق الأندلس (Xarc-al-Andalus)، وقد ذكرها الجغرافي ياقوت الحموي وحدد مكانها بين أليكانت (Alicante) وقرطاجنة (Cartagenne)<sup>(21)</sup>.

(18) انظر: م. دي إيبِلزا (M.de EPALZA) منستير إفريقية ....، ص 97-98. وحول احتياجات المسلمين للماء، انظر التأليف الجماعي لـ م. دي إيبِلزا (M. de EPALZA) (ناشر): الماء والسكان المسلمون، (Esp.) بنيسا (Penisa) 1988، وم. دي إيبِلزا (M. de EPALZA) (ناشر): الحمامات العربية في منطقة بلنسية (Esp.)، بلنسية 1989.

(19) انظر: ر. أزوار (R. AZUAR) الرباط في عهد الخلافة ...، ص. 15.  
(\*) يبقى هذا الأمر قابلا للنقاش بسبب صورة مماثلة لهذه المساجد في "سدراته" قرب "ورجلان" في الجزائر، وفي المدينة المنورة، فيما يعرف بـ «المساجد السبعة» (المغرب).

(20) انظر: ج. أوليفر آسين (J. Oliver Asin) "التونسيون في إسبانيا من خلال أسماء المواضع" (Fr.)، الكراسات التونسية، تونس XVIII/ص 69-70، 1970؛ ج. مارسى (G. Marçais) ملاحظة حول الرباط في بلاد البربر، مجموع في التاريخ والحفريات في الغرب الإسلامي (Fr.)، الجزائر، 1957، I، ص 23-36؛ ل. غولفان: المرجع المذكور

(21) انظر: م. دي إيبِلزا (M.de EPALZA)، المنستير في إفريقية ....، ص 95-99. نص ياقوت، معجم البلدان ط، ف ورستنفيلد، لپسيف، 1866-1872، IV، 621؛ ط. القاهرة 1324/1901، م. 8، 176، والترجمة الإسبانية لـ ج. عبد الكريم، إسبانيا الإسلامية في كتاب ياقوت (ق XII-XIII)، غرناطة

- النُقُوش الكتابيَّة المحفوظة على جدران مسجدين من المساجد الصغيرة والتي ترددت فيها عبارة: ( دخل هذا الرابطة، (كذا) (22).

إنَّ هذا السَّبب هو الذي دعا عالم الحفريات أزوار (Azuar) أن ينعت هذا الموضع بـ " رابطة الخلافة " (وقد دعتُه أيضا إلى ذلك سنة تاريخ تأسيسها، المحددة حسب اللوحة بسنة 944/333، وهو تاريخ في صميم عهد الخلافة الأموية بقرطبة على الرِّغم من اكتشاف بقايا مواد إسلاميَّة تعود إلى عهد متقدِّم تحت المسجد الذي حفظت فيه اللوحة المذكورة ) (23).  
وإنِّي أفكر- اعتمادا على نص ياقوت الحموي وعلى المفردات العربيَّة التي لها صلة بلفظ رباط أن مجموع [المساجد] كان يسمَّى منستيرا، أو أن كلَّ مسجد من المساجد الصَّغيرة كان يسمَّى رابطة (24).

وهكذا فإنَّ هذه المؤسَّسة الإسلاميَّة تفتح مجالات للبحث متعددة ومتنوعة الاختصاص، انطلاقا من بقايا المواد المحفوظة تحت كُثبان ثواردماردال شقورة. وهناك، بالإضافة إلى تحليل هذه الأشياء (خاصة المصاييح الصغيرة...) احتمالات كثيرة مطروحة حاليا بين المختصين حول نوعية هذا المجمع الأثري الفريد: فهل هو حصن عسكري؟ أو جانب من مدينة المدور؟ أو رابطة للتنسك؟ وهل الجدران القائمة إسلاميَّة أو فينيقية؟  
ويبدو لي- من زاوية نظر دينية، وحسب الدِّراسات الإسلاميَّة - أنه ينبغي أن نوضح قبل كلِّ شيء مسألة الموقع الحربي لهذا المجمع الأثري وطبيعته العسكريَّة.

وأعتقد أنَّ الموضع كان نظريًا موقعا استراتيجيًّا (فهو على الشاطئ وفي مدخل نهرشقورة (Ségura)، ومنه كان دخول بحارة غزا في القرن 9/3 إلخ.)، ولكن هذا المجمع الديني لا يدخل ضمن شبكة الخطط الاستراتيجية للحماية والمراقبة العادية التي تؤمِّن بها قرطبة ساحل تدمر (Tudmir) (أراضي مقاطعتي مرسية (Murcie) وأليكانت (Alicante) حاليا). إنَّ هذه المراقبة السياسيَّة والعسكريَّة كانت تقوم بها شبكة تابعة لسلطة الدَّولة من مدن قلاعيَّة قائمة على طول طريق أغشت الرومانية القديمة (Via Augusta) التي أعاد المسلمون استعمالها وتهيئتها ( لورقة، مرسية، أربولة، أَلش، أليكانت، شاطبة،

---

(22) انظر: س . برسالو (C. Barcelo) ، "الكتابات العربيَّة و ثواردمار" (Esp.)، الرِّباط في عهد الخلافة ...، ص 185-195 .

(23) انظر: ر. أزوار (R. AZUAR) ، الرِّباط في عهد الخلافة...، ص 183-195 .

(24) انظر: م. دي إبلزا (M.de EPALZA) توطئة حول أصل ومعنى وتطور كلمة الرِّباط (Esp.): الرِّباط الإسلامي ...، ص 66

بلنسية<sup>(25)</sup>. أما في خصوص الطَّبِيعَةِ العسكِرِيَّةِ لهذا المَجْمَعِ الأَثَرِي (وليس من الضروري من وجهة نظر علم الآثار أن تكون الجدران فنيقيَّة) فمن الأحرى أن تعزى إلى روح التَّطَوُّع الإسلاميَّة للمرابطة لا إلى الجهاد، أي إلى الازدواجية القائمة باستمرار بين الأصل الحربي وروح التَّطَوُّع في الدِّين الإسلامي موضوع الحديث لاحقاً<sup>(26)</sup>.

وبالفعل، وحسب الدِّراسات الإسلاميَّة، إنَّ اكتشاف المَجْمَعِ الأَثَرِي المرموق بهضاب قواردمار دال شقورة كان عاملاً في غاية الأهمية، من شأنه أن يجدد البحوث حول الرِّباط والرباطات والرباطات والمنستيرات والزَّوَايا في إسبانيا. وهي مؤسَّسات ومبانٍ نموذجية في الإسلام الكلاسيكي ثم في الأندلس بصورة عامة.

### دراسة التسميات: ربيطة. ربيدة، رابطة (Ràpita, Ràpida, Ràbita).

لقد جددت دراسة الرِّباطات، بصورة موازية، ويقطع النظر عن اكتشاف قواردمار، مبادرة منبثقة عن مقارنة لغوية لأصل المواقع الجغرافية. وذلك بتنظيم جمع من الباحثين المنتمين إلى مدينة قطلانيَّة صَغِيرَةٍ، هي "سانت كارلس دي لا رابطة" (Sant Carles de La Ràpita) (في مقاطعة طرَّخونة (Tarragona) جنوب مصبِّ نهر الأبر (Ebre)، من ذوي الشَّغف بالتاريخ المحلي، ملتقى في سبتمبر 1989. وهذه المجموعة "أرأل" (Arrels) بمعنى "جذور" في القطلانيَّة) كانت تقودها شخصيَّة محليَّة قويَّة، هي فاليري بوي (Valeri Boet). وكانت غايتها أن تجمع أثناء الملتقى بين غايتين ثقافيتين متكاملتين وهما: القيام بتوأمة بين سكَّان من إسبانيا يشتركون في تسمية مشتقَّة من اللَّفْظ العربيّ رابطة (بطرَّخونة، ولايدة (Lleida)، وبرشلونة، وميورقة، ووالبة (Huelva)، وجيَّان (Jaén)،

---

(25) انظر روبييرا (M.J.RUBIERA) مدينة فلينا و الطرق الرومانية والعربية (Esp.)، أليكانت، 1985، وملوك الطوائف في دانية، أليكانت 1985، 1988 (ط2).

(26) انظر دراسات شاملة تتعلق بالأندلس لـ ج. أوليفار آسين (J. Oliver Asin)، الأصل العربي للرباط والرباطة ومرادفهما. مساهمة في دراسة الخطط العسكريَّة في التَّاريخ القروسطي من خلال معجم ألفاظ شبه الجزيرة الإيبيرية، المجلة التاريخية للأكاديمية الملكية، مدريد XV، 1928، ص 347-395، 496-542؛ ل. توراس بلباس (L. Torres Balbas)، "الرباطات الإسبانية الإسلاميَّة" (Esp.)، 1982، 174-157؛ م. دي إيبيلزا (M.de EPALZA) (ناشر. "توطئة لدراسة"، ص 61-107) (Esp.) ومؤلفون آخرون، الرباطات الإسلاميَّة

وغرناطة ، والمرية ...)، والجمع أيضا في مؤتمر علمي، يحضره خبراء في مختلف الميادين، التي لها علاقة بهذا الأسم العربي (السانية، دينية، هندسية، تاريخية ... إلخ). وكنت قد ترأست إدارة العلمية بوصفي أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أليكانت، في نفس الحيز اللغوي المزدوج (القطلاتي - القشتالي) بالساحل الإسباني من البحر الأبيض المتوسط. وقد جمع هذا المؤتمر جمهورا محليا غفيرا بخبراء إسبانيين وعرب في شؤون الرباطات، كما جمعهم ببعض المؤرخين أصليي الجهة أمدا الحضور بعلوم تاريخية متنوعة حول الماضي العربي لمنطقة طرطوشة عند مصب نهر الأبر. وقد جمعت الإسهامات العلمية لهذا الملتقى في مجلد ذيل بفهارس هامة وضعها فرنسيسكو فرنكو-سانشاز (Francisco Franco-Sánchez) (27). وينبغي أن يعاد في السنوات المقبلة مثل ملتقى سنة 1989 مع المحافظة على ظاهرة التوأمة بين السكّان - بما في ذلك المدن والقرى العربية، والمالطية، والإيطالية، الحاملة لهذا الاسم - مع ما ينبغي رصده من إمكانيات لتوسيع مجال البحث في الرباطات على مختلف الأصعدة. ومن المعلوم أن أعمالا سابقة درست أيضا تسمية الرباطات، وقد كان من أكثرها اعتبارا بحث "خايم أوليفار آسين (Jaime Oliver Asin) حول الأسماء المشتقة من الأصل الثلاثي العربي (ر.ب.ط.) المباشرة بين مفردات اللغات الرومانية وبين أسماء أماكن شبه الجزيرة الإيبيرية، إلى جانب معطيات أخرى لغوية وجغرافية وتاريخية وإسلامولوجية أخذت من بقية نواحي العالم الإسلامي (28). ثم إن أوليفار آسين (Asin Oliver) زاد - في العشرينات الموالية - في تدقيق العلاقة بين أسماء الأماكن الإسبانية المشتقة من اليونانية المعربة "المنستير"، والأسماء العربية المشتقة من الأصل (ر.ب.ط.) (29).

وقد كان بحث أوليفار آسين (Oliver Asin) أيضا متمحورا حول الطابع الحربي والديني لهذه المؤسسات الإسلامية خلال القرون الوسطى. وكان من البديهي أن يضيّع من هذه الألفاظ وهذه الأسماء العربية، بدخولها في اللغات الرومانية، طابعها الديني الإسلامي

(27) انظر الرباطات الإسلامية... وتوطئة لدراسة لـ م. دي إيلزا (M. de EPALZA)، بالكتلانية (ص 9-59)، وبالإسبانية (ص 61-107) - ودراسات معمقة تتعلق بمختلف الرباطات، تأليف د. برامون (D. Bramo)، وم. مارين (M. MARIN) وم. إسبينار (M. ESPINAR) وج. أبلان (ABELLAN)، وف. الدشراوي، وج. شيخة، وف. فرنكو (F. Franco)، وب. كانو (P. CANO)، وس. بيارنا (C. Biarnés)، وج. أ. غوماز سانخوان (J. A. Gomez Sanjuan)، وهي أعمال ستقدم لاحقا مشفوعة بتفاصيل ضافية.

(28) انظر: ج. أوليفار آسين (J. Oliver Asin) الأصل العربي (Esp.)...

(29) انظر: ج. أوليفار آسين (J. Oliver Asin) "التونسيون في إسبانيا".



المميز، وهو ما زاد في الرّفْع من درجة دلالتها الحربية إلى أقصى حدٍّ. ولم يكن من السهل هنا أيضاً تمييز العنصر الحربي في الإدارة السّياسيّة الإسلاميّة تمييزاً واضحاً من العنصر التطوعي في الرّوحانيّة الفرديّة والجماعيّة عند المسلمين . ورغم ارتباط هذين العنصرين ارتباطاً وثيقاً في الخطاب الإسلامي ، فإنّه يمكن تحليل كلّ منهما على حدة كما هو الشّأن بالنسبة إلى الرّباط وإلى الجهاد في علمي الكلام والفقه الإسلاميّين .

إنّ دراسة تسمية المواقع التي كانت محورَ بعض المساهمات المهمّة في مؤتمرات مدينة سانت كارلس دي لا رابطة (Sant Carles de La Ràpita) ، قد وسّعت المعرفة بمواقع الرّباطات، وذلك بالاعتماد على نصوص جديدة ساهمت في معرفة أفضل لتاريخ هذه المواقع، خصوصاً في مملكة بني نصر بغرناطة <sup>(30)</sup>، و جيّان <sup>(31)</sup> ووادي الأبر، وشرق الأندلس <sup>(32)</sup>، وفي قطلانيّة، وفي سانت كارلس دي لا رابطة نفسها (Sant Carles de La Ràpita) <sup>(33)</sup> de). وقد طوّر المؤرّع أيضاً، باعتماده على نصوص جديدة من العصر الإسلامي والعصر المسيحي، المعرفة بما كان قائماً من اتّلاقات واختلافات بين الرّباط والرّابطة والمنستير والزواوية <sup>(34)</sup>.

- (30) انظر . إسبينار مورينو (M. ESPINAR MORENO) و ج . أبلان بيريز (J. ABELLAN PEREZ) " الرّباطات الإسلاميّة في الأندلس: المصادر والمناهج " (Esp) الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 131-175 ، والدراسات المتقدمة لم . إسبينار مورينو (M. ESPINAR MORENO) و ج . مرتيناز رويز (J/ Marti-nez Ruiz) "قرية منتشل" في أواسط القرن 16 . "كراسات المكتبة الإسبانيّة بتطوان" - تطوان، 23 - 24 ، 1981 ، ص 191-278 ؛ و ج . مرتيناز رويز (J. Martinez Ruiz) " المعالم الدّينية الإسلاميّة في غرناطة الموريسكية ( لغة وتاريخ ) (Esp) ؛ في: عبد الجليل التميمي ( ناشر ) ، تطبيق الشعائر الدّينية عند موريسكيي الأندلس ( 1492 - 1609 ) زغوان ( تونس ) 1989 ، ص 121-137 .
- (31) انظر پ . كانو- أفيلا (P. CANO AVILA) ملاحظات حول القلعة الملكيّة ( بجيان ) (Esp) ، " الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 217-224 .
- (32) انظر: ف . فرنكو سنشاز (F. Franco Sanchez) ، " رباطات المنستير وشمال شرق شبه جزيرة الأندلس (Esp) ، الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 191-210 .
- (33) انظر د . برامون (D. Bramon) ، " رباط الكسكال عند مصبّ نهر الأبر " ، الرّباطات الإسلاميّة ... 109-120 ، مجموعة دراسات حول الرّباطات ، نفس المرجع ، ص 211-215 ؛ ج . أ . غوماز صانخوان (J. A. Gomez Sanjuan) ، الرّباط القشتلي (Esp) ، نفس المرجع ، ص 253-266 ؛ أ . ماننت (A. Manent) ، الرّابطة في سهول طرّخونة ، سلسلة الجبال الذهبية (Esp) ، منتسرات عدد 374 ، فيفري 1992 ، ص 114-115 .
- (34) وذلك بالاعتماد على أعمال م . إسبينار مورينو (M. Espinar Moreno) - ج . أبلان بيراز (J. Abellan Pérez) ، ن.م.م . ماين (M. Marin) ، « الحياة في الرّباط بإفريقية (Esp) في : الرّباط في عهد الخلافة ...، ص 199 - 207 ، والرباط في الأندلس وفي شمال إفريقيا (Esp) في : الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 121 - 130 ؛ وفرحات الدشراوي : دورو الرّباطات في الجهاد البحري في القرون الوسطى (Arb.) ، في الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 177 - 186 ، جمعة شيخة : « والرّباطات في كتب الطبقات » (Arb.) الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 187 - 190 .

ولكن وللمرة الثانية ، إن دراسة نصوص تاريخية تتعلق بهذه المؤسسات وبهذه المسميات ، فهي مما يؤكد الازدواجية المشار إليها قبلُ بين الأصل الحربي والأصل التطوعي في الإسلام<sup>(35)</sup> .

### العنصر المركزي في هذه المباحث: التأسيس الإسلامي للرباط.

يسطيع المرء أن يطرح بعض المسائل الجديدة حول روح التطوع للجهاد في الإسلام في معرض الحديث عن التأسيس الديني للرباط والمباني المشيدة في القرون الوسطى التي تركت آثارها في التوثيق وفي تسمية المواقع الإسبانية ( رباطات ، رابطات ، منستيرات ، زاويا ، وجسميات ... ) . ولا يعني ذلك بدهاة هنا الدخول في جميع المسائل التي طرحتها البحوث في هذه السنوات الأخيرة في جميع الميادين .

### I. المراقبة ، حل تطوعي بديل عن الجهاد الإسلامي .

إن أهمية العامل الحربي في الدين الإسلامي ، منذ البدء ، مشهورة جدا ( 36 ) . فقد انتظم الإسلام في القرن 1 / 7 بسرعة في صورة دولة ، أو في صورة هيكل دولة عاصمتها المدينة ، واشتمل على كل المؤسسات المؤلفة لتنظيم دولة بما في ذلك المؤسسات الحربية .

فمحمّد صلى الله عليه وسلم [ هوفي نفس الوقت نبي حامل لرسالة إلهية ، ورجل سياسة يقود أتباعه نحو حياة جماعية تقوم على بنية الدولة . وسيستعمل لهذه القيادة السياسية - الدينية ونشر رسالته جميع الوسائل المتاحة له بما في ذلك الوسائل العسكرية<sup>(37)</sup> . ويصور القرآن والسنة هذه السمة العسكرية لرسالته في صورة عنصر قد تداخل بين عناصر أخرى للدين الإسلامي ، غاية في الخصوصية .

(35) انظر م. دي إيبيلزا (M. de EPALZA) في المرجع المذكور أعلاه 98 - 99

(36) انظر : فصل « جهاد » في : دائرة المعارف الإسلامية المختصرة 89 (Shorter E. I.) ؛ وف م. بريخا ،

(F.M.PREJA) إسلامولوجي ، مدريد ، 1952-1954 ، I ، 555 - 558 ؛ وأ. قيبار (E. WE-

BER) - ج. راينو (G. REYNAUD) في المرجع المذكور أعلاه .

(37) اعتمدت في موضوع بنية العناصر العسكرية في السياسة الدينية لمحمد [لصم] يقال " محمد :

الرجل في بعده التاريخي وقيمته الأخلاقية" (Esp.) لم . دي إيبيلزا (M. de EPALZA) في : دراسات

فلسفية وأدبية . بمجلة جمعية الفلسفة في المغرب ، الرباط ، 2 ، 1977 ، 68-82 ( الترجمة العربية ،

نفس المجلة ، 4 ، 1979-80 ، 33-46 .

وهكذا أخذ الجهاد (أو الحرب المقدسة) الذي يعني، عند صاحب العقيدة، " كل عمل صالح مبدول"، أهمية متزايدة على أنه جهد عسكري جماعي وطني (في سبيل الله) ذلك أن خطر الحرب المتمثل في الموت أثناء القتال يحتم وجود سلطة هيكلية تدفع إلى الإذعان لقيم سامية مثل: (الكل في سبيل الوطن، عند الجيش الإسباني) والتبشير بالجنة الذي يعد به الدين كل من يموت "شهيدا" ( شهادة الإيمان، شهيد، مستشهد) في الجهاد في سبيل الأمة الإسلامية ( يعتبر الإسلام الاستشهاد في سبيل الأمة، وفي الحروب الوطنية التي تنظمها السلطة الإسلامية المؤهلة استشهادا مقبولا، ولكنه يرفض الاستشهاد الفردي - الذي ينبغي تجنبه - عن طريق التقية أو الكتمان<sup>(38)</sup> . ومن هنا تظهر الأهمية المعترف بها لهذا الواجب الجماعي للجهاد في الإسلام، ولهذا العمل الصالح المبدول في سبيل الله، وهو الواجب الذي يعني الأمة الإسلامية بتمامها، والطريق الأقوم المتحتم على كل مسلم اتباعه للفوز بالجنة في الحياة الأخرى. وقد اعتبر هذا الواجب العسكري أحيانا بمثابة الركن السادس من أركان الإسلام، بعد الأركان الخمسة المألوفة ( الشهادة والصلاة وصوم رمضان والزكاة والحج )<sup>(39)</sup> .

إلا أن تاريخ الأمة الإسلامية قد ملئ، منذ السنوات التي تلت وفاة الرسول<sup>(ص)</sup>، بالانحرافات عن هذا المبدأ والتأويلات المتشعبة له، وحتى عند حدوث مواجهات بين المسلمين، يتذرع في ذلك بالطابع المقدس "للجهاد" وبأجزاء عنه في الآخرة. وهذا هو السبب الذي جعل فقهاء الإسلام وعلماء الكلام يستنون تدريجيا تشريعا صارما حول هذا "الجهاد المقدس"، مستنديين على نصوص القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة. وهو ما جعل فرض الإسلام لممارسة الجهاد عسكريا، أمرا غير قابل عمليا للتطبيق بسبب القيود الفقهيّة والنظرية الموضوعة للقيام به .

فالمسلمون المفطورون دينيا على الأهمية التي يوليها الإسلام للجهاد وما ينجم عنه، من وعود بالجزاء، بوصفه مسعى جماعيا للخلاص، كما تؤكد ذلك آيات قرآنية كثيرة جدا وأحاديث نبوية، يشعرون بضرب من الإحباط بسبب عدم استطاعتهم إتمام جميع ما يرومون تحقيقه من الواجبات الإسلامية بتحقيق الجهاد. لذا مارس المسلمون المرابطة باعتبارها نشاطا تعويضيّا، لعدم إمكانية قيامهم بالجهاد. وتضع كتب الفقه المرابطة مع الجهاد في نفس الباب<sup>(40)</sup>، أو تضعها من بين الواجبات العسيرة في الإسلام ( الجهاد،

(38) انظر: ل. كاردياك (L. Cardaillac): الموريسكيون والمسيحيون: المجاهدة الجدلية (1492-1640) (Fr.)، باريس 1977، 87-101. ( الترجمة الإسبانية، مدريد 1979، 164-165.

(39) انظر أعلاه الهامش 36 ..

(40) انظر مثلا الكتاب المغربي الكلاسيكي الذي نقله إلى الفرنسية: ل. برجي (L. Berger)، رسالة... ابن أبي زيد القيرواني، ط 7، الجزائر 1979، 164 - 165 ..

المرابطة ، الحجّ<sup>(41)</sup> . وفي ظنيّ ، أنه مازال ينبغي القيام بدراسة حول الرّباط باعتباره مؤسسة ومسلكا دينيّاً من خلال أهمّ المؤلفات الإسلاميّة ، وبالأخصّ في الفقه المالكي بالأندلس<sup>(42)</sup> . ولأنّ اهتمام الباحثين قد انصبّ خاصّة ، إلى حدّ الآن ، على مسائل ظرفيّة في النصوص التاريخية وعلى بقايا المعالم الأثرية وما حفظ من أسماء الأماكن . وهذا ما أدّى مرة أخرى إلى رؤية جزئية تماماً لواقع هذه المؤسسة الإسلاميّة التي كان درس أسسها الفقهية - وإن بصفة مجملّة - علماء الكلام والفقهاء المسلمون السنيّون في القرون الوسطى .

## II الاعتكاف الرّوحي - التطوّعي :

للمرء أن يستخلص ، نظراً إلى انعدام دراسة مستوفاة عن نظام المrabطة في الإسلام ، بعض الملامح لمعرفة روحانيّة أولئك " الذين يخرجون للمرابطة " ، إمّا انطلاقاً من معطيات متفرقة من نصوص تاريخية<sup>(43)</sup> ، وإمّا من تحليل بعض الآيات القرآنيّة التي يمكن ربطها بهذه الرّوحانيّة<sup>(44)</sup> . فقد تستوجب ممارسة المrabطة قبل كلّ شيء إطاراً جغرافياً وسياسياً واجتماعياً معيّناً . إذ لا يمكن أن تتحقق المrabطة جغرافياً إلا في منطقة "حدوديّة" من [دار] الإسلام ( الشجر ) ، لأن الأمر يقتضي الدّفاع عن الأمّة الإسلاميّة كما هو الشّأن في إطار الجهاد . وتحظى كلّ من الأندلس والمغرب بهذه الوضعيّة الجغرافية المرموقة ، من هذه الناحية ، بسبب امتداد السّاحل البحري ، وبما للإسلام أيضاً في شبه الجزيرة الإيبيرية من حدود بريّة مهمّة تتاخم الممالك المسيحيّة ، وهي حدود متحركة ولكنها قابلة دائماً لاستقرار المسلمين على أطرافها استعداداً لحماية مناطق النفوذ الإسلامي<sup>(45)</sup> . أما من النّاحية السياسيّة فيما

(41) انظر موعظة القضاة حتى يقومون بمهامهم رغم كلّ المصاعب ، كما لوتعلق الأمر بالجهاد والمrabطة والحجّ ، في نص من إشبيلية في القرن XII ، أ غرسيا فوماز ( A.Garcia Gomez ) - أ . ليفي بروفنسال ( E . LEVI- Provençal ) ، إشبيلية في أوائل القرن XII ورسالتان عبدون ( Esp. ) ، إشبيلية ، 1981 ، ( ط2 ) ، 50 - 51 .

(42) وقع تهميش البعدالديني للرّباط ، قياساً بالاعتناء بالبعد المعماري واللغوي في فصل " رباط " من دائرة المعارف الإسلاميّة المختصرة ( Shorter E.I. ) ، 473 - 475 ، أو في فصل "رابطة" لـ ج . كورومينس ( J. COROMINES ) في المعجم الإتيمولوجي التكميلي للغة الكتالانية ( Esp. ) ، برشلونة ، مج VII ، 1987 ، 137 ..

(43) انظر : م مارين ( M.MARIN ) المرجع المذكور أعلاه .

(44) انظر : م . دي إيبيلزا ( M. de EPALZA ) " روحانيّة الرّباط اعتماداً على القرآن » المرجع أعلاه ، ص 73 - 75 .

(45) انظر : ف . فرنكو سنشاز ( F. Franco Sanchez ) المرجع أعلاه : وم . دي إيبازا ( M. de EPALZA ) ، " الإسلام الأراغوني ، إسلام الشجر " ( Esp. ) توريازو مونوغرافيكو ( -TURIASO . MONOGRAFICO ) : الإسلام الأراغوني ، طرخونا ، 7 ، 1987 ، 9 - 12 .

أنه لا أثر "للجهاد المقدس" في المعنى الدني الدقيق، فإن نشاط أولئك الذين يرغبون في المراقبة ينبغي أن يُعَوَّل فيه على حسن تفهم السلط المحلية لهم . فمن الجائز حينئذ أن نفترض أنه وجدت ، منذ العصر الأموي إلى مستهل القرن 5 / 11 ، مؤسسة تقوم بالمراقبة في كلّ مقاطعة إدارية ، - وهو أمر بديهي في قطلانية انطلاقاً من الأسماء الباقية لمواضع الروابط - في حين كان يتزايد لاحقاً عدد الروابط حول المدن عامة ، ثم في جميع المناطق الواقعة في مملكة بني نصر بغرناطة <sup>(46)</sup> . وأما من الناحية الاجتماعية فإن ما سيحل محل الجهاد ، وهو فرض جماعي ، ينبغي أن يمارس في نطاق "مجموعات" . ومن هنا كان استقرار طوائف دينية تمارس المراقبة في كامل التراب الإسلامي في مناطق تعتبر نظرياً استراتيجية .

وتتألف هذه الطوائف الدينية شبه القارة من عباد لا ينتمون دائماً إلى المحاربين . وربما وقع إقصاء المحاربين المحترفين عن مواضع التعبّد هذه لعدم ملائمة الحياة فيها لنمط حياتهم العنيف . وبالفعل ، فهؤلاء العباد المسلمون مهما فطروا على روح التطوع الإسلامية وعلى أمل الاستشهاد في غارة من غارات العدو استشهاداً قد يؤهلهم لدخول الجنة ، كانوا يجتمعون خاصة ليكونوا (مؤمنين حقاً) ، وهذا هو أيضاً معنى ما أعرب عنه في ملتقى " سانت كارلس دي لا رابطة " ( Sant Carles de La Ràpita ) الشبان المسلمون الإسبان المنتمون إلى حركة المرابطين ، المغربية المنشأ ، المجاهرة بنشر إسلام أكثر التزاماً بالسنة <sup>(47)</sup> . ويعتبر ، ظهور حركة المرابطين من القرن 5 / 11 إلى ق . 6 / 12 في صورة مجموعة دينية اختارت الاختلاء للتعبّد على ضفاف نهر السّينغال ، ثم انتهت أمرها إلى تكوين جيش وإلى تأسيس دولة حكمت المغرب الأقصى والأندلس هدفها مدافعة النصارى ، يعتبر حالة استثنائية تماماً <sup>(48)</sup> . ذلك أن ممارسة شعائر العبادة خاصة ، كانت ، من البدء ، وحدها محور الأنشطة في هذه المواضع المخصصة للخشوع و"الخلوة الروحية" طالت أم قصرت <sup>(49)</sup> .

وتعكس هندسة المساجد الصغيرة بشواردمار ، خاصة ، الأنشطة التعبدية لروادها أكثر مما تعكس الأنشطة العسكرية بالمعنى الدقيق <sup>(50)</sup> . وتؤكد المصطلحات المستعملة

(46) انظر أعلاه هامش ( 30 ) .

(47) انظر: م . دي إيبيلزا ( M. de EPALZA ) ، في المرجع المذكور ، 87-99 ج . نياتو مورينو ( J. NIETO MORINO ) و م . بيريز تالو ( M. PEREZ TELLO ) ، ، " شهادة الحركة العالمية للمرابطين " والرباطات الإسلامية ... ، 279-282 .

(48) انظر مؤلفات عامة لـ ف . لاغردار ( V. LAGARDERE ) المرابطون إلى عهد يوسف بن تاشفين ( 1039-1106 ) ، (Fr.) ، باريس 1989 ، ج . بوش فيلا ( J. BOSCH VILA ) : المرابطون ، (Esp.) غرناطة ، 1990 ( ط 2 ، راجعها أ . مولينا لوباز ( E. MOLINA LOPEZ ) .

(49) انظر أعلاه الهامش ( 44 ) .

(50) انظر: م . إسبينار مورينو ( M. ESPINAR MORENO ) و ج . أبلان بيريز ( J. ABELLAN ) ( PEREZ ) في المرجع المذكور أعلاه .

للإشارة إلى هذه المؤسسات الدينية أن التوجه التعبدى كان يحظى بالأولوية المطلقة لدى هذه الطوائف .

ومن المعلوم أن لفظ رباط لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة ، وهذا أمر من شأنه أن يضلّ المفسرين القدماء وعلماء الإسلاميات المعاصرين . ولكنّي أظنّ أنّه يمكن أن نربط صلة بين مؤسسة الرباط والخمس آيات المتضمنة لكلمات مشتقة من الأصل الثلاثي العربي ر.ب.ط. ( أفعالا وأسماء ) ، وهي آيات كثيرة التداول لأنها تقصّ أحداثا مهمة من التاريخ الديني قبل الإسلام ( طفولة موسى ، أهل الكهف ، ) أو الإسلامي ( غزوة أحد ) أو تلخص التعاليم الأساسية في الإسلام ( س . الكهف ، آ 14 ؛ س الكهف ، آ 10 ؛ س الأنفال ، آ 11 ؛ س آل عمران ، آ 200 ، آ 8 ، آ 60 ) . ونستطيع أن نستخلص من هذه النصوص التي قد تكون بالتأكيد من أكثر ما يتذكره العباد المسلمون من هذه الطوائف الإسلامية ، العناصر الأساسية للفعل الروحاني في الرباط حتى يكونوا "مؤمنين حقاً" ( 51 ) .

ويمكن أن نستخلص من هذه الآيات القرآنية الخمس المبادئ الروحية التي تقوم عليها المؤسسة الدينية للمرابطة وهي :

- الاستعداد لتقبّل العون الإلهي .

- وهو العون الذي يكون في الشّدائد أثناء الجهاد

- وعلى الأخصّ العون الذي يصير به المجاهد "مؤمناً حقاً" .

- في جميع الأحوال العسيرة في الحياة .

- ويحصل هذا الاستعداد بالقيام بالفروض الدينية الإسلامية .

- وخصوصاً منها شعائر الصلّاة .

- الدّعاء المستمرّ بذكر اسم الله

- إيتاء الزّكاة

- المساهمة خاصّة في تمويل الجهاد للدفاع عن الإسلام .

ويمكن منطقيّاً أن يفكر المرء أن هذه المبادئ توجّه الحياة الداخلية في جميع الروابط

الإسلاميّة، مع ترك كلّ مركز يختار بحريّة خصوصيّة تنظيمه في إطار هذه الروحانية .

وهكذا فإنّ الأمر يتعلّق حينئذ بممارسة دينيّة تشتمل على ثلاث نقاط أساسيّة هي :

1 . روحانيّة الدّفاع عن الإسلام ( ملازمة الشّعر ، الاحتراس من الخطر ، التحلّي

بالمروءة والشّجاعة المفرطة ، وربما المساهمة في أشغال تحصين وفي تدريبات عسكريّة،

---

( 51 ) انظر أعلاه الهامش ( 44 ) .

واستذكّار ما وعُد به، المرابطون الذين يستشهدون في الجهاد الإسلامي من ضروب الجزاء).  
 2. روحانيّة تعبدّ يقوم بها "المؤمنون حقاً" (الصلوات الخمس المفروضة كلّ يوم، والتضرّع لله، ونوافل أخرى، وترتيل القرآن).  
 3. روحانيّة إحسان بالمال (تصدّق على الفقراء، تمويل الرابطة، تضامن بين المريدين أو بين المقيمين في الرابطة، دفع النفقات العسكرية ...).  
 وهذا تابع - حسب ما يبدو - من الأحكام القرآنية الخاصة بالمرابطة الإسلامية، ولكن الأمر يتعلّق خاصة ببديل للجهاد الإسلامي (52).

### III. المصطلحات المستعملة في تسمية هذه الخلوات : المنستير، الرابطة ، الرّباط ، الزاوية ...

لقد تركت قصداً إلى آخر هذا العرض الموجز، إشكاليّة لم يقع بعد حلّها حلاً كاملاً، وإن لاحظتها تقريباً جميع الباحثين، وأثارتها بالأخصّ ماريا خيسوس روبيارا ماتا في ملتقى "سانت كارلس دي لا رابطة" (53)؛ إنّها إشكاليّة المصطلحات المستعملة في شأن هذه الخلوات الإسلامية. فما زالت بعض الشكوك تحوم حول المعنى الدقيق لألفاظ "المنستير"، "الرابطة"، "الرّباط" إنّ فيما بينها من اختلاف، وإنّ فيما إذا كانت تعني تطوراً في المؤسسات، وإنّ في الصّلة التي تربط بينها وبين الألفاظ المماثلة لها مثل "زاوية" و"جمعية"، إلخ. (54). إنّ الأمر يتعلّق بإشكاليّة ينبغي أن تطرح في البحوث المستقبلية حول هذا الموضوع. وعلى أساس ما توفّر من وثائق متداولة وبحوث تمّ بعد إنجازها على وجه من الافتراض المعقول نسبياً دون أن يكون ذلك مدققاً بعد تدقيقاً كافياً، يمكن تقديم بعض المعلومات الأولى التي لم يأبه لها الباحثون دائماً في مداخلاتهم.

الرّباط : هو المؤسّسة أو المسلك الإسلامي المكملّ أو البديل للجهاد في معنى روحانيّة التّطوع أو الخلوة الروحية القائمة في المناطق الحدودية أي الثغر (ومنه اشتق اسم : الثّغريون "tagarins" أو الثّغريون "zagarins". وهو الاسم الذي أطلق في إسبانيا على سكّان هذه الجهات. وتعني كلمة "الثّغريين" خاصّة المسلمين القاطنين في وادي نهر الأبر) أو في مملكة أراغون. أما كلمة "الثّغريين" فتعني أولئك القاطنين في مملكة بني نصر بغرناطة وتعني على الأخصّ من يقطن في الجهات الشّمالية والشرقية (55).

(52) نفس المرجع .

(53) انظر الرّباطات الإسلاميّة ...، ص 7، 16، 66 .

(54) انظر أعلاه ، الهامش (50) .

(55) انظر أعلاه ، الهامش (45) .

المرباط : ( ج . مرباطون ) وهم أولئك الذين يمارسون المرباطة. وقد أطلق اللفظ خاصة على الحركة السياسية والعسكرية في الجهة الغربية من بلاد المغرب، أو في الأندلس أو على المملكة البربرية العسكرية التي كانت عاصمتها مراكش من ق. 11/5 إلى ق. 12/6. وتعني كلمة "مُرباط" عامة ( وفي الإسبانية أيضا مرابطو " morabito " تأثرا بالفرنسية) الأولياء الصالحين الذين يجتمع حولهم أهل الورع من المسلمين ( انظر زاوية ) أو الأضرحة وفيها رفاتهم - التي تحظى بضرب من التقديس. (56)

المنستير : ( ج منستيرات ، و" almonastires " و" almonacides " و" almona-chiles "، «almosteres» في الإسبانية والبرتغالية ) لفظ من أصل يوناني استعمل في البداية للدلالة على الأماكن التي يرباط فيها المسلمون باستمرار في مجموعات يكثُر عددها أو يقل.

الركبطة : ( ج . رابطات وروابط ) تدل على كل خلية من بين خلايا المنستير. وقد تدلّ بدءا من ق. 12/6، على المبنى المعزول حيث يجتمع المسلمون، حول ولي صالح، قصد التعبد.

الرِّباط : ( ج . رابطات وربط ) ويدل خاصة في المغرب، على التحصينات العسكرية للدولة الإسلامية للدفاع عن السواحل (سوسة، المنستير، الرباط ...).  
الزاوية : ( ج. [ زوايا ] وفي الإسبانية القديمة "زُقيّة" "zaguias" ) وتدل على مصلى صغير للخلاوة الروحية (ولغة: الركن) وهي شبيهة بالرابطة، ولكنها تستند استنادا واضحا إلى روحانية الرباط أو "الجهاد في سبيل الله" الإسلامي.  
الجامعة : ( " algimia " أو "aljama" في الإسبانية القديمة : وهي مسجد يجتمع فيه الناس للصلاة ). وهي بالتأكيد من قبيل المساجد الجامعة المعدة لأهل الرِّيف خاصة في غرناطة ومملكتها في عهد بني نصر ( ق. 7 - 8 - 9 / 13 - 14 - 15 ).

### زهاد مجاهدون أو عباد متطوعون :

من بين المشاكل العديدة التي تطرحها مؤسسة الرباط أنّه ينبغي الإشارة خاصة إلى طابعها الجهادي أو التطوعي. ويبدو، استنادا إلى وقائع عديدة من تاريخ الأندلس، أنّه يوجد بعض التعارض بين الفعالية الحربية للمجاهدين، والورع الديني لدى المتطوعين. وإذا استثنى عصر الدولة المرابطية، فإنّ التعارض يبدو بينا بين الفظاظلة التي تقتضيها المهنة العسكرية ( " يحارب ليقتل " ) والرغبة في الحصول علي نعيم الجنة عند أهل الورع من المسلمين ( " يجاهد ليستشهد " )، وإن استعملت المجموعتان المسلمتان نفس الخطاب الديني الإسلامي. فالفصل بين هاتين المجموعتين مهما بلغت محاولة تحديده، ومهما أقيمت المعادلة

(56) انظر المرجع السابق. پراط (Brett). في المرجع المذكور أعلاه.



فيه بين العنصر العسكري، والعنصر التطوعي، في هذه المؤسسات الإسلامية لا يمكن من فهم الظاهر التي تدور حول هذه الجوانب من الروحانية الإسلامية القروسطية ومن تجلياتها المعمارية .

ويظهر انعدام الدقة هذا خاصة في بعض مجالات التاريخ الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية، حيث يكون مجديا - على الأقل على مستوى الافتراض - أن نقوم ببعض التمييز المفيد لفهم أحسن للظواهر الاجتماعية ذات الطابع العسكري كالتالي :

1. ينبغي التمييز استراتيجيًا بين شبكات الدولة لمراقبة حدود البلاد الإسلامية البرية والبحرية ( بما في ذلك المدن الدفاعية و طرق مواصلاتها وأبراج المراقبة فيها ... ) والوضع على الحدود حيث تنتصب تلك "الرباطات" أو طوائف الزهاد وأهل الورع من المسلمين.
2. وينبغي معماريًا تمييز الرباطات المعدة للتعبد والتطوع من الرباطات ذات الطابع القلاعي العسكري .

3. كما ينبغي عسكريًا تمييز الجنود من المرابطين، وإن كان الفريقان يستندان إلى نفس الروحانية الجهادية في الإسلام : فالجنود يحترفون الحرب ومختصون في القتال، وهم أقوياء ولكنهم غير حريصين دائماً على تطبيق التعاليم الدينية؛ أما المرابطون فأهل ورع يرغبون في الاستشهاد من أجل العقيدة ، وهم غالباً ما يكونون مسنين أو معوقين يحرصون على أداء الفروض الدينية الإسلامية ليكونوا " مؤمنين حقاً". ويعنى آخر فإن الخدمة العسكرية وحياة الجنود لا تتلاءم دينياً و حياة طوائف العباد في المنسحبات والرباطات والزوايا، كما أن عدم كفاءة المرابطين العسكرية لا تتلاءم والجدوى الحربية المطلوبة من الجيش الإسلامي .

4. وينبغي التمييز أيضاً في معارك المسلمين ضد النصارى في القرون الوسطى، وخاصة منذ عصر المرابطين في القرن 12/6، بين الجيش النظامي للدولة وبين حشود الزهاد المسلمين المصاحبين لهم : فالجنود يذهبون إلى المدافعة والقتال ، والزهاد يذهبون للاستشهاد . وهذا ما قد يفسر جزئياً مجموعة من أهم الهزائم العسكرية للجيش الإسلامي في مواجهة الجيش المسيحي ، مثل واقعة قُنتنة ( Cutanda ) ( 514 / 1120 ) التي أدت إلى خسارة الإسلام لوادى نهر الأبر: فإن طول إعداد الحملة المرابطية وجاذبيتها الدينية - بما أن الأمر فيها يتعلق بحرب مقدسة في نظر الفقهاء والقضاة المسلمين - جعلت جماهير من الصلحاء المسلمين ينضمون إلى صلب الجيش النظامي . وقد أفسدت جماهير الصلحاء هذه ، برغبتها في الاستشهاد ، الخطة [ الدفاعية ] والجدوى الهجومية في صفوف الجيش الإسلامي (57) .

(57) إن ظاهرة تنقل العلماء المسلمين المستن بين كامل مدن شرق الأندلس أين ينبغي أن يمر الجيش المرابطي المتقدم ببطء انطلاقاً من مراکش لغزو سرقسطة والذي سينهزم في المعركة الحاسمة بقتنطة، وهي المعركة التي أدت إلى خسارة المسلمين لسهول نهر الأبر سنة 1120/514 ، قد درساها م . ج . روبيرا ( M . J . RUBI - ERA ) رم . دي إبلزا ( M . de EPALZA ) في : شاطبة الإسلامية من ق VIII إلى ق XIII )، شاطبة (Esp.) 1987. ، 82 ، 155 .

إنَّ الرِّبَاط بالأنْدلس والمغرب في العصر الوسيط يبدو فعلاً مؤسَّسة ومسلَكًا إسلاميين لا أثّر لهما في الإنجازات الحديثة . وللمرء أن يتساءل عن سبب ذلك . إلا أنَّ عدم نجاح المؤرخين المسلمين أنفسهم ، أثناء ملتقى " سانت كارلوس دي لا رابطة" ( Sant Carles de La Ràpita ) في التَّمييز بين المِرابطة والجهاد في النّصوص التّاريخية ، لهو مغزى قوي ما دامت مؤسَّسة الرِّبَاط منعقدة في أيامنا هذه . وفي المقابل فإنَّ شَبَّانًا من المسلمين الإسبان - ينتمون إلى حركة " المِرابطين " ذات الأصل المغربي - كانوا يستندون خاصة على مثال الجهاد عند المِرابطين ، وهو حركة دينية انتهت إلى تأسيس دولة حكمت في الغرب الإسلامي في ق 5-6 / 11 - 12 ، لكنهم كانوا يذكرون دائماً أنَّ مَبْدَأَ " المؤمنين حقًا " هو مركز روحانيتهم<sup>(58)</sup> .

وليس التّأليف بين هذه العناصر المختلفة من الرّوحانية الإسلاميّة ، من العهد الإسلامي الكلاسيكي وما هو سائد دائماً في الإسلام ، من أقلّ ما يغري بالبحث في الرِّبَاط الإسلامي ، بالاعتماد على دراسات حديثة مصدرها الحفريات وأسماء الأماكن . \*

---

(58) أنظر ج . نيأتو مورينو ( J . NIETO MORINO ) وم . بيريز تالو ( M . PEREZ TELLO ) ، في المرجع المذكور أعلاه .

\*ملاحظة : 1 - حافظنا وفاء للنص على اصطلاحات تتعلق بمراحل التاريخ الأروبي مثل ( القرون الوسطى ) ، وعلى صيغ نابعة من الفهم الغربي المسيحي للإسلام مثل (الإسلامي الكلاسيكي ) أو مستعارة من المسيحية .

2- نضيف إلى قائمة المراجع زيادة في الفائدة ، المراجع التالية :

Med Lahbib Hila : L'Ascèse et son Influence Sur la Société Ifriquienne Jusqu' à l'Epoque Aghlabite ( Th : Doc, soutenue à la Sorbonne en 1975 : dacty) ; 5 è partie: Ascèses & Ribats. pp ; 432 - 513

- د . م . الإسلامية 2 . ( E.I.2. ) ، ج VIII ، ص 510 ... فصل "رباط " " Ribat " ، المنشور بعد كتابة هذا المقال . (المغرب)